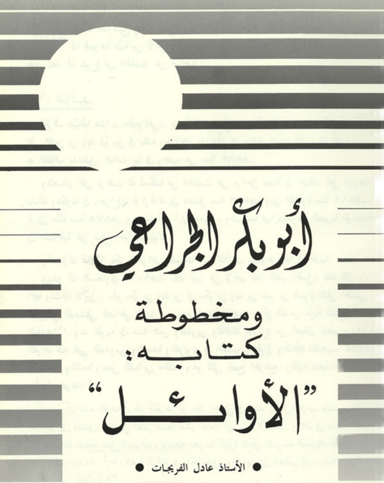

أبو بكر الجراعي

ومخطوطة كتابه "الأوائل"

• الأستاذ عادل الفريجات •

الدارة ٦١

مؤلّفنا هذا شيْخٌ وفَقِيْهٌ حَنْبَلي، وهو عَلَمٌ من أعلامِ القرنِ التاسع الهجري، تَرَكَ لنا مجموعةً طيّبةً من الآثارِ والتصانيف، من بينها كتابه «الأوائل» الذي سنتحدث عنه، بعد أن نفرغ من الحديث عن صاحبه :

أولاً : المُؤلّــف :

يُعْرَفُ شيْخُنا هذا بِـ «الْجِرَاعِي»، نِسبةً إلى (جِراع) من أعمال نابلس. ولكن أبا بكر تقي الدين بن زيد لَمْ يبقَ في بلده (جراع)، بل تنقَّل في مناطق عربية شتَّى، إلى أن استقرَّ به المطاف بدمشق، فمات بها في رجب من سنة ٨٨٣هـ.

والمصادر التي ترجمت له تُمكّننا من الحديث عن مراحل معينة في حياته، لعلَّ أبرزها نشأته وتكونه في (جراع)، ثم ارتحاله إلى دمشق سنة ٨٤٢هـ، وإلى القاهرة سنة ٨٦١هـ، ثم إلى مكَّة سنة ٨٧٥هـ، وعودته أخيراً إلى دمشق، وتدريسه فيها بالمدرسة العمرية الواقعة في الصالحية على سفح جبل قاسيون.

وقد تَرَكَ لنا أبو بكر الجِرَاعِي مجموعةً من التآليف سنعرض لها في حينها.

ويبدو أن السخاوي (٩٠٢هـ)، كان أبرز مَنْ تَرْجَمَ لهذا العلم الحنبلي، فقد قال في اسمه ونشأته الأولى : «أبو بكر بن زيد بن أبي بكر بن زيد بن عمر بن محمود التقي الحسني الجِرَاعِي الدمشقي الصالحي الحنبلي ... ويعرف بالجِرَاعِي. وذكر أنه من ذريَّة الشيخ أحمد البدوي⁽¹⁾. ولد تقريباً في سنة خمس وعشرين وثمانمائة بجراع من أعمال نابلس، وقرأ القرآن عند يحيى العبدوسي والعمدة والعزيري في التفسير والخِرَقِي والنظّام المذهب، كلاهما في الفقه. والملحة وبعض ألفية بن مالك، ونحو ثُلُثَي جمع الجوامع، وألفية شعبان الآثاري بتمامها وغيرها»⁽²⁾

ويبدو أن هذه القراءات قد أُنْجَزها أبو بكر الحنبلي في بيئته الأولى، قرب نابلس، ذلك أنه قَدِمَ إلى دمشق، وله من العمر سبعة عشر عاماً، أي سنة ٨٤٢هـ. وكان في دمشق آنئذٍ دَيْرٌ للحنابلة بسفح جبل قاسيون، وبوسطه مدرسة كبيرة تدعى المدرسة العُمَرية، أسسها أبو عمر الكبير (٥٢٨ - ٦٠٧هـ) المولود في (جَمَّاعِيل) والمهاجر إلى دمشق إثر استيلاء الفرنجة على الأرض المقدَّسة.⁽³⁾

وكانت هذه المدرسة هي البيئة الثانية التي أسهمت في تكوين أبي بكر تقي الدين بن زيد الجِرَاعِي، ففي دمشق أخذ أبو بكر «الفقه عن التقي بن قندس ولازمه، وبه تخَرَّج وعليه انتفع في الفقه وأصوله والفرائض والعربية والمعاني والبيان. ولازم الشيخ عبد الرحمن بن سليمان الحنبلي، وكذا أخذ الفرائض عن الشمس السيلي وغيره، ولزم الاشتغال حتى بَرَعَ وصار من أعيان فُضَلاء مَذهبه بدمشق، وَتَصَدَّى للتدريس والإفتاء والإفادة، بل ناب في القضاء».(٤)

ويبدو أن أبا بكر لم يَكتفِ بما لدى شيوخ المدرسة العمرية من علوم ومعارف، فقد ارتحل إلى بعلبك وسمع فيها صحيح البخاري(٥)، وكذلك قرأ سنن ابن ماجه على برهان الدين بن مفلح (٨٨٤هـ). وقال النعيمي (٩٢٧هـ) : إنه سمع على أبي بكر شيئاً منها(٦). فأبو بكر إذن شيخٌ للنعيمي، كما أنه كان شيخاً لجمال الدين بن يوسف عبد الهادي الذي قرأ عليه المقنع(٧).

وقد ارتحل شيخنا الجِرَاعِي إلى القاهرة سنة ٨٦١هـ أيام قاضي القضاة عز الدين الكناني، فاستخلفه الأخير في الحكم وباشر عنه بالمدرسة الصالحية(٨). وذكر (السخاوي) أن أبا بكر الحنبلي طاف بالقاهرة على من بقي هناك «كالسيِّد النسَّابة، والعَلَم البلقيني، والجلال المحلي، وأم هاني الهورينية من المسندين، وقرأ عليَّ قطعة من القول البديع، وتناول مني جميعه مع الإجازة، وكذلك قرأ على التقي الحصني وعلى القاضي عز الدين يسيراً في المنطق وغيره، وعَرَض عليه النيابة فما امتنع خوفاً من انقطاع التودد، وحضر دروس ابن الهمام وأخذ عنه جماعة من المصريين، وربما أفتى وهو في القاهرة»(٩).

والحق أن الجِرَاعِي قد أفتى، وهو بمصر، فقد ذكر (العُليمي) من جملة فتاويه أنَّ قاضي القضاة عز الدين الكناني المتقدِّم ذكره سُئِل عَنْ مَنْ عليه دَيْنٌ مُؤَجَّل، وقصد السَّفَر وخشي صاحب الدَّيْن من حلوله قبل عَوْدِ الغريم، فطلب منه ذهباً أو ضامناً فامتنع، وعجز عن رَهن أو ضامن، فهل يُحبس أم لا ؟ فأجاب قاضي القضاة عز الدين أن لغريمه منعه من السفر حتى يوثق برهن أو كفيل. قال : وأما حبسه فلا أعرف فيه نقلاً، والمسألة مشكلة جداً. فسُئِل الشيخ تقي الدين الجِرَاعِي عن ذلك، فأجاب : «إنه لا يُحبس لكنه يُمْنَع من السفر»(١٠).

ولسنا ندري ما المدة التي أمْضاها الجِرَاعِي في مصر، ولكننا نعرف أنه حَجَّ مراراً، وجاور في مكة سنة ٨٧٥هـ. وهناك قرأ مسند إمامه بتمامه على الشيخ النجم بن فهد، وعمل قصيدة

نظم فيها سند المسمع، وامتدحه فيها أنشدها يوم ختمه، وكتبها عنه المسمع، أولها :

الحمدُ لِلَّهِ الـذي هَدانـا   وَكَمْ لَهُ مِنْ نِعْمَةٍ حَبانا

وكذا كتب عدة قصائد من نظمه.

وهذا الخبر الأخير الذي أورده (السخاوي) يرسم ملمحاً جديداً من ملامح شخصية أبي بكر الجِرَاعِي، وهو نظم الشعر. وخلاصة القول في شخصية هذا العالم والفقيه الحنبلي أنه : «كان إماماً علاَّمةً ذكياً طَلْق العبارة فصيحاً دَيِّناً متواضِعاً طارحاً للتكلف مُقْبِلاً على شأنه ساعياً في ترقي نفسه في العلم والعمل، ومحاسنه جَمَّة»(١١)

ويمكن أن نلاحظ أن وفرة العلوم التي حَصَّلَها أبو بكر، وسعة الاطلاع التي تمَتَّع بها، قد أهَّلاهُ ليكون مُعلِّماً ومُدَرِّساً؛ فمن أخباره أيضاً أنه كان شيخاً من شيوخ المدرسة العمرية. وهي مدرسة تقع في دير الحنابلة المقام في سفح قاسيون. وقد قال فيها الشيخ جمال الدين ابن عبد الهادي «هذه المدرسة عظيمة لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها»(١٢) ولا نعرف بالضبط متى بدأ شيخُنا التدريس فيها. ولكن يمكن القول : إنه كان يتولى حلقة يوم السبت، ويقال إنه ناب عن ابن عبادة في حلقة يوم الثلاثاء، وذلك إلى جانب الشيوخ الحنابلة : برهان الدين بن مفلح، وعلاء الدين المرداوي، وشهاب الدين العسكري، وغيرهم.(١٣)

وفاتـــه :

توفي أبو بكر بن زيد الجِرَاعِي ليلة الخميس الحادي عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة بصالحية دمشق(١٤). وذكر ابن طولون (٩٥٣هـ) أن قبره يقع في الجهة الشرقية من جبل قاسيون، ويرقد بجواره أيضاً أخوه الشيخ بهاء الدين عبد الله الجِرَاعِي، وجرارعه ومرادوه كثيرون.(١٥)

مُؤَلَّفاتـــه :

إن حياة هذا الشيخ الحنبلي لم تكن وِقفاً على التعلم والأخذ والتتلمذ، بل جاوزت هذا إلى العطاء والتأليف والتصنيف، فقد ذكرت المصادر التي ترجمت له مجموعة من كتبه تَمَكَّنَّا من إحصاء أحد عشر منها، هي بحسب ترتيبها الألفبائي :

١ – الأوائـــل :

وهو المخطوط الذي سنتحدث عنه في القسم الثاني من هذا المقال(١٦).

٢ – تحفة الراكع والساْجد في أحكام المساجد :

وأشار إليه أبو بكر نفسه في كتابه (الأوائل) في باب (المساجد والعيدين)، وسمَّاه : أحكام المساجد. وقد ذكره الزركلي في الأعلام (٦٤:٢) وقال عنه : «جعله تاريخاً لمكة والمدينة والمسجد الأقصى، ثم ذكر أحكام المساجد»

٣ – الترشيح في مسائل الترجيح :

وعزاه له السخاوي في الضوء اللامع «٣٢:١١»، والبغدادي في إيضاح المكنون «٢٨١:١» والزركلي في الأعلام «٦٤:٢»، وعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين «٦٢:٣».

٤ – تصحيح الخلاف المطلق :

وذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٣٣٧:٧)، وكحالة في معجم المؤلفين (٦٢:٣).

٥ – حلية الطراز في حل مسائل الألغاز :

ونسبه إلى أبي بكر الجِرَاعِي، السخاويُّ في الضوء اللامع (٣٢:١١)، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٣٣٧:٧) سماه الألغاز الفقهية، ونعته بأنه مجلد لطيف. والزركلي في الأعلام (٦٤:٢) وقال عنه : «وهو بخطه عندي». ومن هذا الكتاب نسختان في دار الكتب المصرية وفي آخر النسخة الثانية فتيا وردت من القدس أوائل رجب سنة ٨٦٤ في مدلول لفظة «كنيسة» ماهو. وهل يجوز إحداثها في بلاد الإسلام (مخطوط رقم ٢٢٨ مجاميع)(١٧) وقد سماه عمر رضا كحالة : الألغاز الفقهية – معجم المؤلفين (٦٢:٣).

٦ – شرح أصول ابن اللحام :

وذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٣٣٧:٧)، وحاجي خليفة في كشف الظنون ١١١، فقال في أصول ابن اللحام «وشرحه تقي الدين أبو بكر بن زيد الجراعي المتوفي سنة ٨٨٣ وهو شرح ممزوج أوله : الحمد لله على أفضاله» – كشف الظنون ١١١.

٧ – غاية المطلب في معرفة المذهب :

وعزاه إلى أبي بكر الجراعي، السخاوي في الضوء اللامع (١١:٣٢)، وقال فيه : «اختصره من فروع ابن مفلح، واعتنى فيه بتجريد المسائل الزائدة على الخرقي في مجلد». وذكره العُلَيْمي، فقال : «وَقَفْتُ عليه» – المنهج الأحمد (مصورة المجمع بدمشق مج ٢، ٢:٥٠٧). وكذلك ذكره البغدادي في إيضاح المكنون، وَسمَّاه : غاية المطلب في فروع الحنابلة (٢:١٤٢)، وأشار إليه كحالة في معجم المؤلفين (٣:٦٢).

٨ – فضائل الدرر في موافقات عُمَر :

ذكره الزركلي في الأعلام (٢:٦٤).

٩ – مختصر أحكام النساء لابن الجوزي :

ونسبه إلى الجِرَاعِي، الزركلي في الأعلام (٢:٦٤).

١٠ – صورة فتيا له : ذكرت في فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية (١:٥٤٩) و (١:٥٥٠).

١١ – قصائد وأشعار : ذكرها السخاوي في الضوء اللامع (١١:٣٣).

ويهمنا من هذه المؤلفات، التي لا نعرف ما فعلت يد القدر ببعضها، أن نقف عند أحدها، وهو كتاب «الأوائل» المخطوط، بعد أن نستعرض أسماء كتب هذا الباب، أو أسماء مؤلفيها.

ثانياً – التأليف في الأوائل :

عِلْمُ الأوائل عِلْمٌ تُعْرَف به أوائل الوقائع والأحداث والابتكارات، وهو فرع من فروع التاريخ والمحاضرات – كما يصفه حاجي خليفة في كشف الظنون (١:١٩٩–٢٠٠)، فكثيراً ما يتساءل المرء عن أول من فَعَل كذا، وأول من صنع هذا، أو أول من قال كيت وكيت .... الخ. ولهذا اهتم العرب في القديم والحديث في التأليف في هذا الباب.

ويبدو أن هذا اللون من التأليف قديم في المكتبة العربية. وقد اتصل طريفهُ بتالِدِهِ، فلدينا أسماء لمؤلفين ضربوا سهماً في هذا المضمار، منذ مطلع القرن الثالث الهجري. وثمة إشارات أخرى إلى مؤلفين تتراوح وفياتهم ما بين القرنين الثالث، والحادي عشر الهجريين. ومن المعروف

أن كثيراً من مؤلفات هؤلاء وأولئك قد ضاع، ولم يصل إلينا إلا القليل منها، وسنعرض الآن لأسماء من ألف في باب (الأوائل) مراعين التعاقب التاريخي لتلك الأسماء :

١ - ابن الكلبي (نحو ٣٠٦هـ) : وكتابه (الأوائل) ذكره ابن النديم في الفهرست، ط تجدد ١٠٩.

٢ - المدائني : علي بن محمد (٢٢٥هـ) وله مصنف اسمه الأوائل ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء، ط - الرفاعي (١٤:١٣٨).

٣ - أحمد بن أبي عبد الله البرقي(١٨) (٢٧٤ أو ٢٨٠هـ) وقد ذكر كتابه (الأوائل) ياقوت في معجم الأدباء (٤:١٣٥).

٤ - أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر النبيل المعروف بأبي عاصم الضحاك (٢٨٧هـ) وكتابه (الأوائل من المسند) ذكره كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٣:٣١٧.

٥ - أبو عروبة الحرّاني (٣١٨هـ) وكتابه (الأوائل) أشار إليه فؤاد سزكين في كتابه تاريخ التراث العربي - الترجمة العربية (مج ١ - ج ١ ص ٣٤٨) وقال : ذكره ابن حجر في الإصابة (١٢٣٥/٣).

٦ - أبو يعقوب إسحق بن سليمان الطبيب القيرواني (٣٢٠هـ) وكتابه (الأوائل والأقاويل) ذكره البغدادي في إيضاح المكنون (٢:٢٧٥).

٧ - أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) وكتابه الأوائل، طبع في بيروت ١٩٨٣ بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أموير. وأشار فؤاد سزكين إلى أنَّ ثمة نسخة خطية لهذا الكتاب في المتحف البريطاني - الملحق، مخطوطات شرقية ٢/١٥٣٠ (الأوراق ١٨٩ ب - ١٩٦، ٨٦٦هـ) - انظر تاريخ التراث العربي - الترجمة العربية (مج ١ - ج ١ ص ٣٩٥). ويبدو أن المحقق لم يطلع على مخطوطة المتحف البريطاني لأوائل الطبراني.

٨ - سعيد بن سعدون العطار (ت قبل ٣٧٠هـ)، ذكر كتابه ابن النديم في الفهرست، ط تجدد ص ١٩٧.

٩ - المرزباني (٣٨٤هـ)، وكتابه الأوائل أشير إليه في الفهرست ١٤٨. وقال ابن النديم فيه : «فيه أخبار الفرس القدماء وأهل العدل والتوحيد، وشيء من مجالسهم ونظرهم نحو مائة وخمسين ورقة».

(١٠) العسكري : الحسن بن عبد الله (٣٩٥) وكتابه الأوائل طبع بدمشق، بتحقيق محمد المصري ووليد قصاب، منشورات وزارة الثقافة ١٩٧٥ - ١٩٧٦.

١١ - محمد بن عبد الله الشبلي (٧٦٩هـ) وكتابه : الوسائل إلى معرفة الأوائل، ومنه نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق.

١٢ - كمال الدين عبد الرحمن بن محمد العتائقي الحلي، وصنف كتابه سنة ٧٨٨هـ، ومنه نسخة بخط المؤلف في الخزانة الفروق - انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٢٥٣:٢).

١٣ - ابن خطيب داريا محمد بن أحمد بن سليمان يعقوب (٨١٠هـ) - انظر كشف الظنون ١٩٩:١.

١٤ - عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي الربيعي (٨٣٢هـ) وكتابه : الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل - انظر فهرس مخطوطات المكتبة الظاهرية - المجاميع ٣٥٣:١.

١٥ - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) وكتابه : إقامة الدلائل على معرفة الأوائل.

١٦ - إبراهيم بن عمر السويني (٨٥٨هـ) وكتابه : مختصر محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل، وقد اختصر كتاب الوسائل إلى معرفة الأوائل للشبلي - انظر كشف الظنون ٢٠٠:١.

١٧ - أبو بكر تقي الدين بن زيد الجَرَاعي الحنبلي (٨٨٣هـ)، وكتابه (الأوائل) هو محور مقالنا هذا.

١٨ - السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) وكتابه الوسائل إلى معرفة الأوائل، وقد نشر في القاهرة ١٩٨٠، بتحقيق إبراهيم العدوي، وعلي محمد عمر. وذكر بروكلمان أن مُصَنِّفاً لم يذكر اسمه ألَّف كتاباً سمَّاه تذكرة الأوائل في إصلاح كتاب الوسائل للسيوطي، وهو في باريس أول (٩٣١ - انظر تاريخ الأدب العرب ٢٥٣:٢.

١٩ - محمد بن علي بن طولون (٩٥٣هـ) وعنوان كتابه : عنوان الرسائل في معرفة الأوائل وذكره الزركلي في الأعلام (٢٩١:٦)، وأشار إلى أنه مخطوط.

٢٠ - القاضي علي دده. وقد فرغ من تأليف كتابه : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر،

سنة ٩٩٨هـ. وطبع في بولاق بمصر سنة ١٣٠٠هـ. وهو شديد الاتكاء على كتاب السيوطي الآنف الذكر.

٢١ – المولى عثمان بن محمد المعروف بدوقاكين زاده الرومي (١٠١٣هـ) وكتابه : أزهار الحمائل في وصف الأوائل. وهو مطبوع.

وكذلك حَوَتْ بعض الكتب فصولاً مُهمة عن الأوائل وأخبارهم لعل أهمها :

١ – مُصنف ابن أبي شيبة. (٢٣٥هـ)، وبعضه مخطوط في الظاهرية (رقم ٢٨٨ و ٢٨٩ حديث) وهي الأجزاء ٧ و ٨، ١١ و ١٢.

٢ – المعارف لابن قتيبة (٢٧٦هـ).

٣ – المحاسن والمساوىء للبيهقي (٤٥٨هـ)

٤ – تلقيح مفهوم الأثر لابن الجوزي (٥٩٧هـ).

٥ – صبح الأعشى للقلقشندي (٨٢١هـ).

ولَسنا بصدد تقييم جميع هذه المُصنَّفات، لأن الكثير منها قد ضاع، أو لم يُطبع بعد. أما ما بين أيدينا من كتب الأوائل المستقلة بذاتها، فهو : كتاب الأوائل للطبراني (٣٦٠هـ)، وكتاب الأوائل للعسكري (٣٩٥هـ)، وكتاب السيوطي (٩١١هـ)، وكتاب علي دده الذي فرغ من تأليفه سنة ٩٩٨هـ، وكتاب أزهار الحمائل في وصف الأوائل لدوقاكين زاده الرومي (١٠١٣هـ)، وها نحن اليوم نقدم للقراء مخطوطة الأوائل لأبي بكر الجِرَاعِي الحنبلي (٨٨٣هـ).

ثالثاً – المخطوط :

مخطوطتنا هذه توجد ضمن مجموع، في مكتبة برلين بألمانيا الغربية، رقمه ٩٣٦٨. وهي تقع في ١٩ ورقة (٩٧ ب – ١١٥ آ). وقياس الورقة ٢٢٫٥ × ١٧ سم. وعدد السطور في الصفحة الواحدة يتراوح بين ٢٢ و ٢٦ سطراً. وفي كل سطر ما بين ١٣ و ١٥ كلمة. والخط عادي مُهْمَل غالباً.

والنسخة التي نتحدث عنها نسخة في منتهى النفاسة، فقد كُتِبَتْ بخط يد المؤلف. ووقع الفراغ منها في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ٨٨٣هـ، فقد جاء في الورقة الأخيرة من المخطوطة هذا النص الثمين :

«وكان الفراغ منه في ثاني عشر شهر ربيع الأول عام ٨٨٣هـ بصالحية دمشق الشام على يد أبي بكر بن زيد الجِرَاعِي الحنبلي، وهو مُؤَلِّفُهُ وجامِعُهُ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات. والحمد لله الملك المجيد حمداً لا ينقطع ولا يبيد، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين والمُرسلين، وعلى جميع عباد الله الصالحين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ومن غريب الصُّدَف أن يكون هذا المُصنَّف، هو آخر مُصنَّفات أبي بكر بن زيد الجِرَاعِي الدمشقي؛ ذلك أنه – كما تقدَّم – مات في السنة ذاتها التي فرغ فيها من إعداد هذا الكتاب، وهي سنة ٨٨٣هـ. وإذا كان قد فرغ من كتابه هذا (الأوائل) في ١٢ ربيع الأول ٨٨٣هـ ومات في ١١ رجب ٨٨٣هـ، فإن أربعة أشهر فقط تقع بين فراغه من أوائله، ووفاته. وإذا كان هذا الفقيه الحنبلي قد ألَّف كتابه، وله من العمر ٥٨ سنة، فإن من شأن ذلك أن يكون أثره الأخير هذا، قد أُودِعَ خلاصة معارفه وعلومه وخبراته.

والحقُّ أن هذا الكتاب، الذي فرغنا من تحقيقه، يعكس معارف واسعة لأبي بكر الجراعي، ويَكشف عن اطِّلاع كبير على كتب كثيرة في التراث، ومؤلفات عديدة للسَّلَف، طابعها العام ديني حنبلي نقلي، وخصائص التفكير الحنبلي في التأليف والعقيدة والفقه، واضحة في (الأوائل). فالمُصنَّف يُكثر من النصوص والنقول دون أدنى اهتمام بالمناقشة أو التدقيق أو التحليل. وكأنَّ قاعدة : «لا اجتهاد مع النص» كانت وراء فكر الرجل، وهو يصنف كتابه.

وقد أُحْصَيْتُ مصادِرَ أبي بكر في مخطوطته هذه، فَبَلَغَتْ نَيِّفاً وستين كتاباً، كانت خزائن المكتبة العمرية، بصالحية دمشق، هي التي أمدَّته بها – فيما نظن. وكثير من هذه الكتب كتب في الحديث، والفقه، والأصول، والتاريخ. وبعضها كتب في الفن الذي ينتمي إليه الكتاب ذاته، مثل كتاب الأوائل للطبراني ٣٦٠هـ، الذي يبدو أن شيخنا كان يُعلي من قيمته لذا استَوْعَبَهُ في كتابه هذا، أو كاد، ومثل كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ)، الذي أكثر أيضاً أبو زيد من الاتكاء عليه. وهذا الاتكاء أغراني بأنْ أُلخِّصَ بعض أوجه التشابه والتباين، بين كتابي : أبي هلال، وأبي بكر الحنبلي، فلعلّي بهذه المقارنة بين المطبوع، والمخطوط، أُقدِّمُ صورةً موجزةً عن الكتاب الأخير للقارىء العربي :

١ – أَلَّف أبو هلال العسكري كتابه «الأوائل» سنة ٣٩٥هـ كما يقول في آخر إحدى نسخ الكتاب المطبوع (انظر المقدمة)، وكذلك أَلَّف أبو بكر الحنبلي كتابه سنة ٨٨٣هـ.

والسنتنان المذكورتان، هما آخر سِني حياة كل منهما. وهذا يعني أن كلا الكتابين دالٌّ على اكتمال ثقافة صاحبه، وتمام نضجه وتكونه.

٢ – إن الطابع الأدبي التاريخي يغلب على «أوائل» أبي هلال، في حين يغلب الطابع الديني والفقهي والحنبلي على «أوائل» أبي بكر الجِرَاعي الحنبلي.

٣ – لم يُراعِ أبو بكر الترتيب الزمني في «أوائله»، فكان بذا مخالفاً لمنهج أبي هلال، الذي وقف الباب الأول والثاني على بعض الأوليات في الجاهلية، والباب الثالث على أوليات الرسول صلّى الله عليه وسلم، والرابع على الصحابة والتابعين، والخامس على ملوك الإسلام ... الخ. وكذا تَخلَّى الحنبلي في «أوائله» عن مبدأ التصنيف والتبويب والترتيب، وهو مبدأ يلحظه المرء في كثير من كتب أبي هلال، وفي كتابه الأوائل خاصة.

٤ – قَسَّمَ العسكري «أوائله» إلى عشرة أبواب، فَقَسَّم أبو بكر «أوائله» إلى عشرين باباً هي :
الأول : في خصال الفِطْرة والوضوء وما يتعلّق بِهِ.
والثاني : في الصَّلاة.
والثالث : في المساجد والعِيْدَيْن.
والرابع : في الجنائز.
والخامس : في الصَّدَقة والصوم والحج.
والسادس : في الهجرة والمُبَايَعَة والإسلام.
والسابع : في الإمارة والجهاد والغنائم والجزية.
والثامن : في الميراث والمكاتب.
والتاسع : في النكاح والوليمة والصَّداق والخُلْع واللّعان والظِّهار.
والعاشر : في القَوَد والدِّيات والدماء والحدود.
والحادي عشر : في الأكل واللباس.
والثاني عشر : في القضاء وما يتعلَّق بِهِ.
والثالث عشر : في البنيان والخراب والهلاك.
والرابع عشر : في الخَلْق والمخلوقات والحِرَف والآلات.
والخامس عشر : في الحوادث والبِدَع.
والسادس عشر : في التصانيف.

والسابع عشر : في أوَّل الآيات خروجاً.

والثامن عشر : في أحوال الجنَّة والبرزخ والنار.

والتاسع عشر : فيما يتعلَّق بسيِّد السادات وأشرف الأحياء والأموات عليه من الله أفضل الصلوات وأزكى التحيَّات.

والعشــرون : في أشياء منثورة.

٥ – وقف أبو هلال الباب الأخير عنده على (أشياء متفرقة)، وفعل أبو بكر فعله، فوقف بابه الأخير على (أشياء منثورة).

ولتقديم فكرة أدق وأوضح عن هذه المخطوطة التي بين أيدينا رأينا أن ننشر هنا الباب التاسع عشر من أوائل أبي بكر، وهو يتعلق بالنبي العربي محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلم.

(ق ١٦/آ) الباب التاسع عشر

يتعلق بسيد السادات وأشرف الأحياء والأموات عليه من الله الصلوات وأزكى التحيات.

«أوَلُ ما بُدِىءَ بهِ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم من الوحيِّ الرُّؤْيا الصالحة، رواه البخاري.(٢٠) وأولُ ما نَزَل عليه مِن القرآن اقرأ.(٢١) وأولُ زوجاتِهِ خدِيْجة(٢٢). وأولُ أولادِهِ القاسمُ، وبهِ كانَ يُكْنَى(٢٣). وأولُ غَزَواتِهِ الأَبواءُ، وهي وَدَّانُ(٢٤). وهو أولُ مَنْ خَتَمَ الكُتُبَ عَنْ قُرِيش وأهلِ الحجازِ حينَ احتاجَ إلى مُكَاتبةِ الملوك، فقيلَ لَهُ : إنَّهُمْ لا يَقْبَلُوْنَ كِتاباً إلا مَخْتُوْماً، فاتَّخَذَ خاتَماً مِنْ ذَهَب، ثم طَرَحَهُ، واتَّخَذَ خاتَماً مَنْ وَرَق. وذَكَرَ هذهِ الأخيرةَ الْحَسَنُ بن عبد الله بنُ سعيد في كتابِ الأوائل(٢٥). والباقي مشهور.

وذَكَرَ الحسنُ بنُ عبد اللهِ أنَّ أوَّلَ هدِيَّةٍ أُهْدِيَتْ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالمدينةِ هديةُ زَيْدِ بنِ ثابت، قَصْعَةٌ مثرودةٌ خُبْزاً وسَمْناً ولَبَناً(٢٦). وذكر ابن أبي شيبة أنَّه أولُ شَفِيعٍ في الجنَّة. وهو أَوَّلُ شافِعٍ وأولُ مُشَفِعٍ. وأولُ مَنْ تَنْشَقُ عنهُ الأرضُ، وأولُ مَنْ تُفْتَح لهُ الْجَنَّةُ، وأولُ مَنْ يَدْخُلُها، وأولُ مَنْ يُجِيْزُ على الصراطِ المُسْتقيم. وإذا صُعِقَ الناسُ يَوْمَ القيامةِ فَهَوَ أولُ مَنْ يَفِيْقُ.

قالَ القاضي أبو يعلى(٢٧) : أولُ أرضٍ مَلَكَها رسولُ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ مِنْ وَصيَّةِ مُخَيْرِيْق اليهودي(٢٨)، من أموال بني النَّضِيْر، فإنَّ الواقديَّ ذَكَرَ أنَّ مُخَيْرِيْق اليهوديَّ كان حِبْراً مِنْ علماءِ بَنِي النَّضير، آمَنَ برسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. وكانَ لَهُ سَبْعةُ حَوايطَ

فوصَّى بِها لرسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم حِيْنَ أَسْلَمَ. وقاتَلَ مَعَهُ بأُحُد، حتى قُتِلَ. وهي من صَدَقاتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

الصَّدَقةُ الثانيةُ أَرْضُهُ مَنْ أموالِ بني النضيرِ بالمدينةِ. وهي أولُ أَرْضٍ أفاءَها اللهُ على رسولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

وَذَكَرَ أبو القاسم الطُّبَرانِيّ أنَّ أولَ ما سُمِعَ مِنْ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ قَدِمَ المدينة : «إطْعِمُوا الطعامَ، وإفْشوْا السلامَ (ق ١٦/ب) وصِلُوا الأرْحَامَ وصَلُّوا بالليل، والناسُ نيامٌ، تَدْخلونَ الجنَّةَ بسلام»(٢٩). وأَنَّ أولَ ما يُلْقِي جِبْرِيلُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا جاءَ إليه بالْقُرْآنِ : «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْم»(٣٠).

وأولُ ما تَفَوَّهَ بِهِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حُجَّة الوَداع أنْ قالَ : إنَّ اللَّهَ يُوْصِيْكُمْ بأُمَّهاتِكُمْ، إنَّ اللهَ يُوْصِيْكُمْ بأُمَّهاتِكُمْ، إنَّ اللَّهَ يُوْصِيْكُمْ بآبائِكُمْ، إنَّ اللهَ يُوْصِيْكُم بالأَقْرَبِ فالأَقْرَب(٣١).

وأولُ شكْوى رسول اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأخيرةِ كان في بيتِ أُمِّ سَلَمة، ثم حُوِّلَ إلى بيت عائشة(٣٢).

وأولُ مَنْ يَشْفَعُ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم مِنْ أُمَّتِهِ أهلُ المدينةِ وأهلُ مكَّةَ وأهلُ الطائِف(٣٣).

وذَكَرَ ابنُ أبِي شَيْبَة عَنْ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، أنَّه قالَ : أولُ ما نهانِي رَبِّي عَزَّ وجَلَّ عن عبادةِ الأوثانِ، وعن شُرْب الخمرِ، وعن مُلاحاةِ الرِّجال. ونُقِلَ عن الشعبي أنَّهُ قالَ : مَكَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَوْمَ أُحُد بالمُشْرِكين، وكانَ أوَّلُ يوم مَكَرَ فيهِ.

خاتمـــــة :

وهكذا نكون قد عَرَفْنا، ولعلَّهُ للمرَّة الأولى، في هذا العصر، عَلَماً مُسْلِماً حَنْبَلِيّاً، من القرن التاسع الهجري، لم يَسْبق له أن حظي بعناية تُذْكر من الباحثين - فيما نعلم - كما عَرَفْنا مجموعةً كبيرةً من آثاره، ووقفنا عندَ إحدى مخطوطات كتبه، وهو كتاب (الأوائل) الذي يتميزُ عن غيره من كُتُب الأوائل الأخرى بأنه ذو طابع ديني، كَتَبَه شيخٌ من شيوخ الحنابلة بدمشق سنة ٨٨٣هـ. كما اطّلعْنا أخيراً على منهج الكتاب من خلال فصلٍ من فصوله.

● المصادر والمراجع ●

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة، نشر محمد حامد الفقي، القاهرة ١٩٥٢.

(٢) البخاري : صحيح البخاري، القاهرة د.ت

(٣) بدران، عبد القادر : مُنادمة الأطلال ومسامرة الخيال، دمشق ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

(٤) بروكلمان، كارل : تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرين، ط ٣، القاهرة ١٩٧٤ فما بعد.

(٥) البغدادي، إسماعيل : إيضاح المكنون، منشورات مكتبة المثنى ببغداد، د.ت.

(٦) البغدادي، الخطيب : تاريخ بغداد، القاهرة ١٩٣١.

(٧) الحموي، ياقوت : معجم الأدباء، ط الرفاعي، القاهرة ١٩٣٦.

(٨) خليفة، حاجي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات مكتبة المثنى ببغداد، د.ت

(٩) الزركلي، خير الدين : الأعلام، ط ٥ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠م.

(١٠) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، نشر مكتبة القُدْسي، القاهرة ١٣٥٥هـ.

(١١) السكتواري، علاء الدين دَدَه : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، ط بولاق ١٣٠٠هـ

(١٢) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين : الوسائل إلى معرفة الأوائل، تحقيق إبراهيم العدوي، وعلي محمد عمر، القاهرة ١٩٨٠م.

(١٣) الشَّطِّي، جميل : مُختصَر طبقات الحنابلة، دمشق ١٣٣٩هـ.

(١٤) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد : الأوائل، تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير، بيروت ١٩٨٣م.

(١٥) ابن طولون، محمد : ١ – قضاة دمشق، تحقيق صلاح الدين المُنَجد، دمشق ١٩٥٦.
٢ – القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٩٤٩.

(١٦) العسكري، أبو هلال : الأوائل، تحقيق محمد المصري ووليد قصّاب، دمشق ٧٥-١٩٧٦.

(١٧) العلموي، عبد الباسط : مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس، تحقيق صلاح الدين المنجّد، دمشق ١٩٤٧.

(١٨) العُلَيْمي : المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد (مصورة مجمع اللغة العربية بدمشق)

(١٩) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، ط ٢ بيروت ١٩٧٩.

(٢٠) كحالة، عمر رضا : معجم المؤلفين، دمشق ١٩٥٧.

(٢١) ابن النديم، محمد بن إسحق : الفهرست، ط رضا تجدد، بيروت ١٩٨١.

(٢٢) النعيمي، عبد القادر بن محمد : الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، دمشق ١٩٤٨.

(٢٣) ابن هشام : السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وصحبه، القاهرة : د.ت

(٢٤) فهرست مخطوطات دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٤ (ج ١).

● الهوامش ●

(١) الشيخ أحمد البدوي هو : السيد الجليل الشيخ أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر البدوي الشريف الحسيب النسيب من بني بري – قبيلة من غرب الشام. وقد سكن والده في المغرب فولد هناك الشيخ أحمد في مدينة فاس سنة ٥٩٦هـ. وقد حفظ القرآن وقرأ شيئاً من فقه الشافعي وعُرِف بالبدوي للزومه اللثام، فقد كان يلبس لثامين لا يُفارقهما. وزار سورية والعراق، وكان صاحب كرامات. وقد توفي بطنطا في مصر سنة ٦٧٥هـ – شذرات الذهب ٥:٣٤٥، والأعلام ١:١٧٥.

(٢) الضوء اللامع ١١:٣٢.

(٣) انظر الدارس في تاريخ المدارس ٢:١٠٠، والقلائد الجوهرية ١:١٦٥ فما بعدها. وقد كان استيلاء الفرنجة على الأرض المقدسة سنة ٤٩٢هـ – انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠:٢٨٢.

(٤) الضوء اللامع ١١:٣٢.

(٥) المصدر السابق ١١:٣٢

(٦) انظر الدارس في تاريخ المدارس ٢:٥٨، وقضاة دمشق لابن طولون ٣٠١.

(٧) انظر مختصر طبقات الحنابلة للشطي ٧٤ – ٧٥.

(٨) انظر المنهج الأحمد للنعيمي (مصورة مجمع اللغة العربية بدمشق) ج ٢، ٢:٥٠٧ وشذرات الذهب ٧:٣٣٧.

(٩) الضوء اللامع ١١:٣٢-٣٣.

(١٠) المنهج الأحمد، للنعيمي (مصورة المجمع) ج ٢، ٢:٥٠٧.

(١١) الضوء اللامع ١١:٣٣.

(١٢) انظر منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، لعبد القادر بدران ٢٤٤. ومن المعروف أن كتب المكتبة العمرية، أو بعضها، كانت إحدى مكونات المكتبة الظاهرية بدمشق في هذا العصر – انظر منادمة الأطلال ١٢٠.

(١٣) انظر الدارس في تاريخ المدارس (المدرسة العمرية)، والقلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون ١٧٣، ومختصر تنبيه الطالب للعلموي ١٣٠-١٣١.

(١٤) الضوء اللامع ١١:٣٣، والمنهج الأحمد (مصورة المجمع) ج ٢، ٢:٥٠٨، وشذرات الذهب ٧:٣٣٧.

(١٥) انظر القلائد الجوهرية ٢:٤٥١.

(١٦) وقد وفقنا إلى الحصول على نسخة منه بخط يد صاحبه، وذلك بفضل الآنسة (آنكافون كو كيلسكن) من جمهورية ألمانيا الاتحادية فلها نسجّل الشكر والامتنان.

(١٧) انظر فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية ١:٥٤٩.

(١٨) ورد في معجم الأدباء (الرقي)، وهو في معجم المؤلفين (٢:٩٧) البَرْقي، على الصواب.

(١٩) وهو مخطوط في الظاهرية ضمن المجموع، ١٠٨٨ – انظر فهرس مخطوطات المكتبة الظاهرية، المجاميع ١:٢٤٥ ونشر هذا الكتاب في بيروت ودمشق عام ١٩٨٥ بتحقيق عبد الله الجبوري وكذلك نشره في الكويت ١٤٠٥هـ محمد بن ناصر العجمي.

(٢٠) صحيح البخاري ١:٣. ونص الحديث هناك عن عائشة رضي الله عنها : «أولُ ما بُدِىءَ بِهِ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصالحةُ فِي النومِ، فكانَ لا يَرَى رُؤْيا إلاَّ جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثمّ حُبِّبَ إليهِ الخلاءُ، وكَانَ يَخلو بغارِ حراءَ فيَتَحنَّثُ بِهِ». وانظر الأوائل للطبراني ٤٢، والأوائل للعسكري ١:١٤٥.

(٢١) في الأوائل للطبراني عن أبي سلمة، وسألت جابر بن عبد الله : أيُّ القرآنِ أُنْزِلَ أولُ ؟ فقال : يا أيُّها المُدَثِّر – الأوائل ٤٣، انظر فتح الباري ١:٢٨.

(٢٢) الأوائل للعسكري ١:١٥٩.

(٢٣) في الأوائل للعسكري أن أول أولاده عبد الله – ١:١٥٩. وفي السيرة ١:٢٠٢، والمعارف ٦١ أنَّ أولَ أولادِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأكبرهم، القاسم، وبه كان يُكنى.

(٢٤) انظر السيرة ١:٥٩١، والأبواء قرية من أعمال الفرع من المدينة، وتسمى غزوة الأبواء غزوة وُدَّان. وكانت بين النبي عليه الصلاة والسلام وقريش. ووقعت في السنة الأولى للهجرة، انظر معجم البلدان (الأبواء)، والأوائل للعسكري ١:١٧١.

(٢٥) الأوائل للعسكري ١:١٤١. وتتمة الحديث في الأوائل «وَنَقَشَ عليهِ : مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ في ثلاثة أسطر، مُحَمَّد، في سطر، ورسولٌ، سطر، واللهُ، سطر. وكان في يده حتَّى مات صلَّى الله عليه وسلَّم، وفي يد أبي بَكْرٍ حتَّى مات، وفي يد عُمَر حتَّى مات، وفي يدِ عُثْمانَ سِتَّ سِنِين». والخبر في طبقات ابن سعد ١:٤٧٣.

(٢٦) الأوائل للعسكري ١:١٦٩.

(٢٧) القاضي أبو يعلى هو : محمد بن الحسين بن محمد بن خلف أحمد، أبو يعلى المعروف بابن الفرَّاء. عالم عصره في الأصول والفروع، وهو أحد الفقهاء الحنابلة في بغداد، توفي سنة ٤٥٨هـ وله تصانيف كثيرة – انظر تاريخ بغداد ٢:٢٥٦، وطبقات الحنابلة ٢:١٩٣–٢٣٠ والشذرات ٣:٣٠٦.

(٢٨) مُخَيْرِيْقٌ اليهودي : صحابي كان من علماء اليهود وأغنيائهم أسلم، وأوصى بأمواله للنبي صلَّى الله عليه وسلم، مات في غزوة أحد سنة ٣هـ، انظر الإصابة ت ٧٨٥٢ – والأعلام ٧:١٩٤.

(٢٩) الأوائل للطبراني ٦٢، وقد رواه عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

(٣٠) روى الطبراني هذا الحديث عن عبد الله بن عباس، قال : «كانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السلامُ إذا جاءَ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بالقرآن. أوَّلُ ما يُلْقِي عَلَيْهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ فإذا قالَ جبْرِيلُ عليه السَّلام : بسمِ اللَّهِ الرَّحمٰنِ الرحيمِ، الثانيةَ، عَلِمَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أنّه قَدْ خَتَمَ السُّوْرةَ. وَافْتتحَ الأخرى» الأوائل للطبراني ٧٠.

(٣١) الأوائل للطبراني ٩٧، ورواه بسنده عن أبي أمامة الباهلي.

(٣٢) الأوائل للطبراني ١٠٣، ورواه بسنده عن أسماء بنت عُمَيْس.

(٣٣) الأوائل للطبراني ١٠٥، ورواه بسنده عن عبد الله بن جعفر.

* * *